الشطح الإبداعي

ضرورة حياتية

الإقدام
ولا شيء
إلا الإقدام

أنا، من الناحية الرسمية، أحمل لقب شطاحة مبدعة منذ عام 1988، باعتبار أنني مشاركة في البداية بالعمل في وكالات دعاية مختلفة، ومنذ 1996 باعتباري مالكة شركتي الخاصة بي "الحرية الكبيرة"[1] قائمة بالتعاون مع مؤسسات مختلفة في تطوير أفكار جديدة وتصورات ابتكارية تواصلية. ومن الناحية غير الرسمية كنت دائماً أحب ابتكار أشياء، وقصص وحكايات عجيبة وأحاول أن أشكل بيدي من صور أفكاري شيئاً.

وكان من عظيم حظي أنني نشأت في بيت يستحسن هذه الأشياء بالذات في عمومها ويشجع عليها. وبعد أن حصلت على شهادة الثانوية العامة الألمانية – الأبيتور – خرجت من عشي الدافئ على عجل رغم ذلك وذهبت إلى فرنسا لأعمل جليسة أطفال (فتاة أوبير)[2]، وعملت مُدرسة تزلق على الجليد في سويسرا ومرشدة سياحية في كورسيكا. ثم درست مهنة التدريس للغات اللاتينية والفرنسية، ويرجع ذلك إلى عشقي الكبير للغة اللاتينية، ذلك العشق الذي كان أحد الأسباب القليلة التي جعلتني أحياناً أحب المدرسة. إلا أن الدراسة الجامعية كشفت لي حدودي. فقد أحسستُ على الرغم من عشقي أنني لست في مكاني سواء عند أساتذة فقه اللغات القديمة أم عند أساتذة اللغات الرومانية، ولم أستطع إلا قليلاً، بل أقل من القليل أن أحث نفسي على مطالعة الكتب، ولم أجد لي مدخلاً حقيقياً إلى العلوم الإنسانية[3]. والخلاصة: أن هذه الدروس الجامعية لم تكن تناسبني وانقطعتُ بعد الفصل الدراسي الرابع. ونزلت مجال الدعاية، وأتممتُ برنامجاً تدريبياً، ودرست في الوقت نفسه التسويق، واشتغلت بعد ذلك في وضع تصورات ووضع خطط استراتيجية في وكالات مختلفة، وحققتُ في عام 1995 استقلالي من خلال تأسيس وكالة " أنكه بيلتسر. وكالة لأفكار الأفلام"[4]؛ وأسستُ في عام 1996 شركة خاصة هي "الحرية الكبيرة شركة ذات مسئولية محدودة لإدارة الابتكار وتسويق أفكار جديدة "[5].

ويتضح لي في أثناء عملي يومياً مراراً وتكراراً أننا لم نُتَح لنا جميعاً في طفولتنا وصبانا إمكانية أن نجرب أشياء ونحن نسند ظهورنا إلى سند نفسي مطمئن، وأن تنمي شخصياتنا في اتجاهات مختلفة، وأن نسمح لأنفسنا بالحرية في التفكير. ثم تطرأ في المراحل التالية من نمونا ونحن في طريقنا لنصبح كباراً أمورٌ تؤثر تأثيراً حاسماً في ثراء أفكارنا وفي خيالنا. لماذا يصعب على كثير منا ابتداع شيء جديد؟ أي ابتداع نتاج عقلي يحفز الناس من حولنا على أن يشاركونا التفكير والعمل؟ اختراع منتَج عقلي يؤدي إلى عمل أشياء بطريقة مختلفة عما يعمله الآخرون، ونصبح نتيجة له بالفعل أشخاصاً أفضل وأنجح، فنبلغ هيئة براءات الاختراع باختراعنا ونحقق فائدة تنافسية حاسمة حيال المنافسين؟

ربما لم يكن ما يلي معروفاً لك: أنت لديك فكرة وتحكي لزميلك أو زميلتك متحمساً عنها، ولكنك لا تنال شيئاً من الاستحسان الفائق فلا يأتي من يربت على كتفك ولا يفرقع أحد فلينة زجاجة الشامبانيا. وبدلاً من هذا وذاك تشق عبارة "أنت تشطح، أنت تخرِّف!" طريقها إلى أذنك. وعبارة "أنت تشطح، أنت تخرِّف!" تقوم في هذا الموقف غالباً مقام أنك قلت شيئاً لم يسمع به الشخص الواقف أمامك من قبل على هذا النحو الذي قلته. ومن المحتمل أنك كنت آنئذ تسلك أفضل طريق في التفكير في شيء جديد. وفي عمل شيء جديد. ولا ينبغي لك الآن أن ترخي كتفيك محبطاً وأن تترك الأمر خائب الرجاء.

وسيؤكد لك أغلب خبراء الاقتصاد أن الابتكارات هي محرك الاقتصاد، وبخاصة في الأوقات الصعبة وفي الأسواق التي يستهدفها صراع ساخن. والنتيجة المنطقية أن أي مؤسسات بدون مثل هؤلاء الناس الذين يبتكرون الجديد فكراً وعملاً لن تكون في المستقبل قادرة على المنافسة. الشطح الإبداعي ضرورة حياتية لكي نكون ناجحين في القرن الواحد والعشرين.

وعلى هذا الكتاب أن يشجعك، لتخلق الجديد، لتفكر في الجديد، ولتتكلم عنه ولتعمله. إنني أود أن أحيِّرك بالمعنى الإيجابي، وأن ألهمك في الوقت نفسه، بأن أحاول أن أحدث خروقاً صغيرة في بنيات حظيت بحبك، لكي أتيح لأفكار غير معهودة الدخول من خلالها. سأظل أهز ما هو معهود وما هو مألوف وسأقدم لك في المقابل ما هو تعارضي وما هو مبهج، لكي أريك منظورات جديدة، ولكي أوقظ مقدرتك على الابتكار وأخرجها إلى النور. أود أن أنبه منطقة المعدة لديك، وأن أوجهك إلى العقدة التي من الممكن أن تكون قد تكونت فيها في أثناء القراءة علامة على المقاومة. في هذه المواضع بالضبط تكمن فرص عظيمة يمكنك مستقبلاً أن تفيد منها. ويمثل نشوء نوع من المقاومة في البطن رد فعل سَوِي تماماً، إذا نحن تشجعنا واعتبرنا نظريات العبقرية لجهابذة الابتكار من مثل "دانيل جوليمَن"[6] و"هوارد جاردنر"[7] أو "ميهالي سيكسينتميهاليي"[8] كثلوج سقطت بالأمس كما يقولون ولم يعد أحد يهتم بها. ولكن الميزة الخاصة التي يتميز بها الجديد هي في رأيي التخلي الواعي عن خبرات معروفة، وإلا ما كان الجديد جديداً.

كتابي هذا "الشطح الإبداعي ضرورة حياتية" كتبته أيضاً بصفة خاصة جداً للمؤسسات التي تضيق أحياناً بالشطاحين المبدعين في صفوفها. يرجو هذا الكتاب أن يبين كيف أن هؤلاء المفكرين التعارضيين المختلفين في طرائق فكرهم المليئة بالشطح لهم هم بالذات أهمية هائلة، ويرجو أن يبين مدى أهميتهم بالنسبة إلى النجاح الكلي للمؤسسة، وكيف أن هناك مؤسسات تحرك بعونهم عملية الابتكار وتستطيع هكذا أن تؤثر تأثيراً أنجح في السوق.

نبغي أن تحل عبارة "شطح ألماني" محل عبارة Made in Germany (صُنع في ألمانيا) التي تحررت في هذه الأثناء من أن تكون قيمة في حد ذاتها،

سيكون الشطح الإبداعي عما قريب مادة تعليمية مبتكَرة في جامعاتنا وسيعمل الشطح الإبداعي على بث حركة وسيكون مستقبلاً بمثابة جدول الضرب بالنسبة للإدارة. كثير من مؤسساتنا لديها الآن معين هائل كامن للابتكار والشطح، وأغلب الظن أن السؤال هل تستغلها أم لا تستغلها لن يكون مطروحاً مستقبلاً، وإنما سينحصر في متى وكيف. المطلوب هو الإقدام ولا شيء إلا الإقدام!

"كُلُّهُ نعيده من البداية!" هذه هي الصيحة التي يعود إلى إطلاقها المخرج أو مدير الإنتاج في كل مرة يكون فيها من الضروري في أثناء الإنتاج إعادة تصوير مشهد ويكون على الجميع أن يذهبوا إلى مواقعهم الأولى لكي يبدءوا من البداية. "آه يا روميو. حبي لك بلا حدود، إنني أذوى في شوقي إليك. قبِّلني وإلا ألقيت نفسي من الشرفة." ستوپ. مدهش يا چولييت، أحسن. شوية عاطفة كمان، وإلا نملت أقدام الناس. وعلى روميو الآن أن يرينا ما هو الحب الحقيقي. تمام، "كله نعيده من البداية". ."يا روميو. حبي لك بلا حد..." "ستوپ. لا يا چولييت، لا يزال المطلوب أكثر من ذلك! "كله نعيده من البداية". هيا. هوپ." "روميو..." هنا نقطع هذا المشهد المثير. "كله نعيده من البداية".

أخيراً، انتهيت من الإفطار، ونشفت شعري بالسيشوار لتوِّي، والتقطتُ حقيبة يدي، إلا أنني لم أجد المفتاح الملعون، أين هو؟ كل يوم نفس التمثيلية. أنا وضعته على المنضدة، بلا شك. أم هل نزلت ياترى بالأمس إلى القبو مرة ثانية؟ كما أنه ليس في الحقيبة كذلك. "كله نعيده من البداية". أعيد الشنطة إلى حيث كانت، وأذهب إلى الباب وأجرب، أستعيد في مخي دخولي شقتي بالأمس، كما يستعيد المتزلق على الجليد في مخه حركة "السلالوم"[9] وهي التزلق من المنطلق من خلال علامات محددة خطوة خطوة نحو الهدف . وصعدت الدرج بأقصى سرعة، وبيدي المفتاح الخيالي، وفي داخل الشقة يدق التليفون. بسرعة، بسرعة، ربما تكون مكالمة تليفونية مهمة، وأدس المفتاح في الكالون، فينفتح الباب، وأندفع داخل الشقة، وأصك الباب، وأعدو إلى المنضدة الصغيرة في المدخل، وأركن الشنطة، وأرفع السماعة: "هاللو باربارا" – لماذا لا تتصل بي هذه الست على الهاتف المحمول؟! – "لا، لا ... الحكاية أنني وصلت البيت الآن لتوِّي ... مساء الغد؟ انتظري لحظة ..." وشددت الشنطة نحوي كأني أشدها بسنارة السمك، وأخرجت منها أجندة مواعيدي. " الساعة السابعة عظيم. ليلتك سعيدة، إلى

الملقاء." نخلع المعطف، نروح التواليت، وفي الطريق إليه نخلع الحذاء شحطاً.

أنا جوعانة، ماذا أطبخ الآن يا ترى؟ لحظة. ناقص شيء. "كله نعيده من البداية". في النقطة بين فتح الباب والاندفاع داخل الشقة وصك الباب هناك في فيلمي نتفة معقدة صغيرة. أين حركة إخراج المفتاح؟ وهأناذي أفتح الباب، وإذا المفتاح مدسوس فيه، وحيداً مسكيناً في الكالون من الخارج. وواقع الأمر أن العين لا تخطئه، لأنني ربطت فيه دوبارة صفراء وضاحة، لكي أجده بسرعة، في كل مكان، في الحال.

ومن المؤكد أنني نجوت من جريمة قتل وسطو ما كان بيني وبينها إلا خيط رفيع – وإني لأرى كيف يتسلل شخص حالك صاعداً من خلال بير السلم. في المخروط الضوئي المنبعث من بطارية جيبه تضيء الدوبارة الصفراء الوضاحة مغرية كدليل إلى الطريق، دعوة موجهة إلى لص أشر يبحث عن لآلئ وجواهر. وهو قد أتى يقيناً من فوق السطح، كما فعل "كاري جرانت"[10] في زمانه، أم هل كانت هي "جراتسيا باتريتسيا"[11] قبل أن تتزوج الأمير "رينييه" أمير موناكو؟ وأنا أنعس قريرة العين وأحلم بيلاچات بيضاء بينما "جريس كيللي" وهي تبحث عن تاجي تعثر على الخزانة الحديدية في المكتبة وتضع لي باعتباري أميرة "ماريبو"[12] عبوة ناسفة وتفجر الحجرة كلها. ويتسبب الانفجار في سلسلة من ردود أفعال لا يصدقها العقل، فتتحرك صفوف كاملة من البيوت فجأة و... ولكن هذه قصة أخرى. "كله نعيده من البداية".

ربما قلت في نفسك وأنت تقرأ السطور الماضية " إنها تشطح"، ولعلك قلت "إنها لتملك خيالاً مزدهراً!" هذا صحيح، إنني أملك خيالاً مزدهراً، شكراً جزيلاً على المجاملة والمديح، وشكراً جزيلاً لك على مسايرتك لي وأنا أسترسل في قصتي. هل لفت انتباهك كيف يستطيع دماغك أن ينتج صوراً وأنك على مدى 45 ثانية . فقد استغرقت قراءة هذه الفقرة تقريباً 45 ثانية . استطعت أن تنتقل سريعًا من موقع السطو على الجواهر إلى الحجرات الأميرية في موناكو؟ كل هذا بسبب المفتاح الصغير لباب البيت الخارجي. هل لاحظت أنك استطعت دون جهد كبير أن تشغل هذا الفيلم الخيالي القصير في سينما دماغك الخصوصية؟ هل كنت تعلم أن سينما دماغك الخصوصية مفتوحة 24 ساعة في اليوم، سبعة أيام في الأسبوع، و52 أسبوعاً في العام وأنك تمتلك كَمّاً غير محدود من تذاكر الدخول المجانية؟

وهل تعرف أيضاً ما يمكنك أن تعمله فيها؟ كل شيء! يمكنك أن تصبح مستشاراً اتحادياً، أو أن تصنع تورتة الفراولة، أو أن تكون مدير مؤسسة، أن تكتشف ما تواريه خادمتك من أسرار حرفتها في حسن توزيع الأشياء بالمنزل، وأن تقنع زميلتك بأفكار جديدة، وأن تصلح سيارة، وأن تصفر لحن "لا بالوما"[13] بالمقلوب، وغير ذلك مما يمكن أن يخطر ببالك.

ربما يكون قد صعب عليك أيضاً أن تتابع قصتي الصغيرة. قد لا تكون أية صور قد نشأت في دماغك إطلاقاً، ولكنك استطعت أن تسمع مؤثرات صوتية أو أن تشم عطر"جراتسيا باتريتسيا" أو رائحة الديناميت. ومن المحتمل أن تكون هذه الملحوظات غير المترابطة في ظاهرها قد أدت بك إلى أن تنحي هذا الكتاب على التو جانباً ورحت بالفعل تستعرض في ذهنك قائمة ضيوف عيد الميلاد وإلى من تُراهم سيُهدون هذا الجزء الغالي ويخلصون من أمرها.

وأسمح لنفسي هنا أن أرجوك أن ترفع ذراعك وأن تضع عضدك على رأسك وأن تمد إصبع السبابة إلى أن تصل إلى أذنك. لا بد من أن هناك كليبساً صغيراً كالذي تعرفه في علبة السيجار هل تحس به؟ اثن الكليبس بكل بساطة إلى أعلى وافتح من فضلك الجزء العلوي من دماغك إلى جانب. ثم مد يدك إلى الداخل، استخرج مخك واركنه مؤقتاً في علبة أو إناء تختاره. قد تصلح لذلك على سبيل المثل علبة كرتون مهملة أو طبق سلطة غويط، فإذا لم تجد شيئاً أصغر من ذلك، فربما اخترت الحوض أو البانيو أو أيضاً جردل المسح، جردل كالموجود في كثير من البيوت تحت حوض المطبخ. ثم

اقفل من فضلك الغطاء، سك الكليبس الصغير، وها أنت ذا تملك رأساً جديداً كلية بقرص حاسوب صلب (هارد ديسك) وقد مسح من عليه كل شيء، منفتح للجديد ومستعد لتقبل كل شيء يمكن أن يأتي.

من المفيد أن يتحرر الإنسان من حين لآخر من إرباكات مخه وأثقال أفكاره، وأن ينصرف عامداً واعياً عن إمكانات المقارنة بخبرات معروفة وأن يمنح نفسه وجهة نظر جديدة. وهذا شيء يحول أحياناً بيننا وبين أن تكون لدينا على الفور حلول ووصفات جاهزة في الدماغ وفي متناول اليد، ويجعلنا أكثر تنبهاً

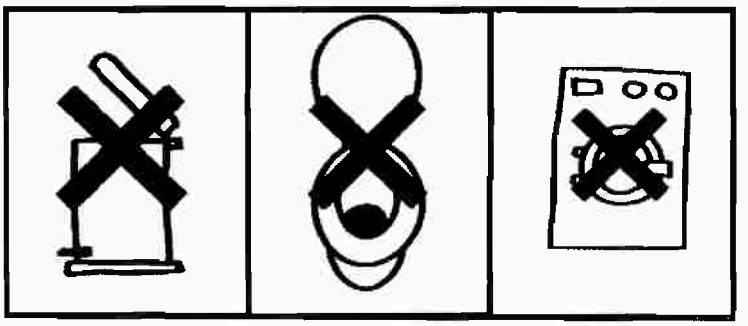

إلى ما يجري حولنا. بدماغ متحرر تتخذ فجأة معنى أشياءٌ تلوح في ظاهرها كأنها بلا معنى، وتفتح أبعاداً غير متوقعة في الفكر والإحساس والسلوك. لقد أصبحتَ الآن مهيئاً على خير وجه، ويمكنك أن تندفع مقداماً إلى مغامرة الإبداع.

هوامش المترجمين

1 Große Freiheit

2 Aupaimädchen) أو au pair girl (باللغة الإنجليزية): هي فتاة تعيش مع أسرة مضيفة في بلدها أو في الخارج وترعى كل شئون طفل الأسرة المضيفة مقابل الإقامة والحصول على مبلغ من المال شهرياً وذلك بهدف اكتساب لغة بلد الأسرة المضيفة أو التعرف على ثقافتها. وكلمة au pair هي كلمة فرنسية تعني خدمة مقابلة.

3 هناك في منظومة العلوم الألمانية تقسيم متوارث للعلوم إلى مجموعتين: مجموعة العلوم الطبيعية Naturwissenschaften وفيها الفيزياء والكيمياء والأحياء والفلك والجيولوجيا والطب الخ ومجموعة العلوم التي يسمونها العلوم الإنسانية Geisteswissenschaften وتضم فقه اللغات والتاريخ والاقتصاد وعلم النفس وعلم الاجتماع الخ– علاوة على مجموعة العلوم المثالية Idealwissenschaften وفيها الرياضيات والمنطق. ومن البديهي أن الحديث عن المدلولات والمناهج والتداخلات، بل ومعنى كلمة Geist وكلمة Natur الخ حديث طويل يخرج عن إطارنا في هذا الكتاب.

4 "Anke Pelzer, Agentur für filmreife Ideen"

5 "die große freiheit GmbH für Innovationsmanagement und die Vermarktung neuer Ideen"

6 "Daniel Goleman" شارك في تأليف كتاب عن اكتشاف الإبداع ظهرت طبعته الألمانية في عام 1997.

7 "Howard Gardner"مؤلف كتاب عن عبقرية أينشتاين ظهرت طبعته الألمانية في عام 1996.

8 "Mihaly Csikszentmihalyi" مؤلف كتاب عن الابتكار ظهرت طبعته الألمانية في عام 1997.

9 Slalom هي حركة في كثير من الرياضات المقصود بها المرور السريع والمتكرر بالمنعنيات.

10 هو "Archibald Alec Leach" المعروف باسم "Cary Grant" وهو ممثل بريطاني معروف بشكل كبير بأفلامه التي قدمها للسنيما الأمريكية.

11 هي "Grace Patricia Kelly" المعروفة فيما بعد باسم الأميرة "Gracia Patricia"، وهي ممثلة أمريكية حصلت على جائزة الأوسكار للأفلام الأمريكية، وفي عام 1956 تزوجت الأمير رنييه الثالث "Rainier III"، أمير موناكو.

12 Maribo مدينة تقع في جزيرة لولاند رابع أكبر الجزر الدنماركية.

13 La Paloma أغنية مشهورة ألفها "Sebastián Iradier" بعد زيارته لكوبا في عام 1861.